

أسلوب الرافي

وطريقته في كتابته

للأستاذ محمود أبو رية



حمد الناس للرسالة الفراء جميل وقائماً لصديقتها المغفور له
« مصطفي صادق الرافي » وشكروا لها احتفاءها بذكرها الثالثة
فكتبت بمناسبة ما كتبت ، ولا ريب في أن صنيهما هذا مع
إمام من أئمة الأدب إنما هو وفاء للأدب الذي وقفت نفسها على
حيافته والقيام عليه

ولقد كان مما كتب في هذه الذكرى مقال بليغ لصديقنا
الأستاذ سعيد المريان كان مما جاء فيه أنه قال عن طريقة الرافي
في تأليف مقالاته ما وصفه أن يعرفه ، وأن ذلك مبين في كتاب
« حياة الرافي » وفي الحق أن ما ذكره صديقنا سعيد صحيح
لا ريب فيه ، ولكن ذلك لم يكن شأن شيخنا الرافي من يوم
أن أمسك القلم للكتابة ؛ وإنما كان ذلك في منتصف سنة ١٩٣٢

فحسب ، ذلك أنه لما كتب مقال (فلسفة الأدب) في صيف هذا
العام أخذ يسأل أهل البصر بالأدب عن قيمة هذا المقال وبالغ
في السؤال ، ولما سأله عن سر اهتمامه بمعرفة آراء الأدباء فيه
أجابني بخطاب تاريخه ٢٦ يولية سنة ١٩٣٢ قال :

« إنما اهتمت بمعرفة الرأي في مقال فلسفة الأدب لأنني
كتبت بطريقة لم تتفق لي من قبل في غيره ، فإني لما أردت كتابته
بعد كتابة فصل ابن الرومي اتكست فجعلت أدون ما خطر لي
وقتها بعد وقت ثم أخرجت المقال من هذه الخواطر واختصرت
كثيراً ولم أزد شيئاً . وهذه هي الطريقة التي يكتب بها كبار
العلماء في أوروبا ، ولكن الوقت يسعمهم ولا يسعنا »

من ذلك يتبين أن الطريقة التي بينها صديقنا الأستاذ سعيد
في كتابه « حياة الرافي » عن كتابة الرافي لمقالته إنما كانت
في صيف سنة ١٩٣٢ فحسب ، وكان مقال (فلسفة الأدب) أول
ما كتبه بهذه الطريقة

ولقد رأيت بمناسبة القول في طريقة كتابة شيخنا الرافي
وأسلوبه أن أوافق قراء الرسالة بما قاله هو عن أسلوبه عندما سأله
العالم الجليل بمقرب صروف : لم لا يكتب بلغة سهلة يفهما كل
الناس كما كتب في (تاريخ آداب العرب) :

الذي يحدده ، وتركت له رقم تليفون المنزل الذي كنت مقياً به .
وهأنذا لا أزال أنتظر الرد من المواطن الجليل !
أرأيت إذاً ، قارئ العزيز أنه قبل أن تطلب من الأزهر أن
يكون كأمثاله من جامعات أوروبا ، يجب أن نطلب من كبار رجالنا
وخاصة الذين هم فوا أوروبا ونخرجوا في جامعاتها ، أن يكونوا
كرجالها !

ذلك خاطر أوحى إليّ به كلمة الأخ الجليل محمود الشرفاوي .
على أني أرى أن ذلك ليس معناه ألا نطالب بإصلاح الأزهر ؛
بل على اللضم من هذا اعتقد أن الأمر جد ، وأن الأزهر في حاجة
ماسة للإصلاح ، وأنه واجب ديني ووطني أن يسام كل قادر
في هذا السبيل برأيه وجهده . إن الأزهر إن تخلف طويلاً عن
للقافة تناساه الناس وطواه الزمن فصار من أحداث التاريخ ،
وحيث لا قدر الله يذهب آخر مجد من أجداد مصر للتألمة ويضيع
العقل المنيع للباقي للإسلام ، والله يهدينا طريق الرشاد

محمد يوسف موسى

للمدرس بكلية أصول الدين

في صباح اليوم التالي حين أخبر أن هذا الأستاذ الجليل جاء
يرد لي الزيارة أي والله سيدي للقاري "إني لا أصرح ولا أتزيد ؛
فقد جاء الأستاذ ماسيتيون للمنزل المتواضع الذي كنت فيه ،
ولم يمض على زيارتي له يوم وإيلة ، شاكراً تفضلي - كما قال -
بزيارتي له ؛ وأهدى إليّ عددًا من مجلة علمية تعنى بالدراسات الشرقية
والفلسفية الإسلامية تضمن للكثير من بحوثه

لم أصل بعد لما أريد ، فهناك بقية الحديث : رأيت بعد هذا ،
أو رأي رفيق سوري كان معي ، أن أسى لزيارة الدكتور
طه حسين بك رجاء أن أصيب من فضله وتوجيهه ما يساعدني
في دراستي ، ولم ينثنى عن الرغبة في الاتصال بالأستاذ الكبير
ما أعلمه من المدام بين الأزهر وبينه ، وهو عداء ليس من صالح
الأزهر ولا الجامعة أن يدوم

اتصلت إذاً بالمنزل للفخيم الذي كان مقياً به بالتليفون فقيل لي
إنه ليس موجوداً وكان ذلك قبل الظهر . عاودت الاتصال بعده
فقيل إنه على المائدة . وأخيراً اتصلت مدة ثلاثة ورجوت محدثي
أن يبلغ حضرة الدكتور رجائي أن يتفضل باستقبال في الوقت

جيرانه ولا من لتسابة في طريقه إلا « هدا هدا إلى الأساس »
 عَلم الله يا سيدي الشيخ أني ما كنت أصبر على مصيبة
 للبلاغة ... لولا تقى بأجرها ولولا استثناسي إلى المزين فيها ،
 وهم جمهور أهل الأدب إلا قليلاً يميزني بأسلوب آخر يضحكني أحياناً
 أما هذا الذي بسمونه غموضاً وتدقيقاً فما أنا بصاحبه
 ولا للعامل فيه ، ولكنه طور من أطوار الزمن لا بد أن يسبق
 نهضة للتجديد كما سبقها من قبل . فلقد كانوا يصفون به سيدي
 شعراء العربية قاطبة أبا تمام والتنبي ، حتى قالوا في أبي تمام إنه
 أفسد للكلام وأحاله وعقده بتعمله وصناعته ، وإنه أتعب
 للناس حتى صار استخراج معانيه باباً مفرداً في الأدب ينسب
 إليه طائفة من العلماء ، وإن أعرابياً سمع قصيدته التي مطلعها :
 طَلَل الجبج . فقال : إن في هذه القصيدة أشياء أفهمها وأشياء
 لا أفهمها ، فإما أن يكون قائلها أشمر من جميع للناس ، وإما أن
 يكون جميع الناس أشمر منه . وهذه شهادة بأنه أشمر من جميع
 للناس ولا ريب إذ يستحيل أن يصح للشق الآخر . ثم كان جمع
 من كبار الرواة يتمصبون عليه كابن الأعرابي والرياشي وغيرها ،
 بل قد بلغ من تعصب الرياشي عليه وعلى البحترى أن قلّت نسخ
 ديوانيهما بالبصرة في زمنه زهد للناس فيهما . ولحق التنبي شراً
 مما لقي أستاذه ومثله الأعلى الذي يقلده ويحتذى عليه ! ومع ذلك
 أمجد الشعر كله في طريقتهما إلى عصرنا هذا

ولقد كان التنبي كَحَمَلٍ اسمه ونحى من لوح الزمن لو كان
 يميم للبلاغة عيب يكون معهما . فقد قال فيه الإمام السكري :
 لا أعرف أحداً كان يتبع الميوب فيأتيها غير مكترث إلا التنبي ،
 فإنه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئاً منها . فلنا ولكن
 جميع عيوب الكلام (بهذا الحصر) لم ترد على أن كانت من أقوى
 الأسباب في تخليد حسنات الرجل

إن أرفع منازل للبلاغة للمربية ، كما قالوا ، أن يكون في قوة
 صانع الكلام أن يأتي مرة بالجزل وأخرى بالسهل ، فيلين إذا
 شاء ، ويشدد إذا أراد . ولا يبلغ هذه المنزلة أحد فيحكما
 وبسطها حقها من التمييز إلا جطلته الأقدار وسيلة من وسائل
 حفظ البلاغة بتسلم الزمن ويسلم ، بل قل بالألفاظ الصريحة
 المكشوفة : يتسلم لثة للقرآن ويسلمها . فإما أسلوب واحد وطريقة
 واحدة فهذا في قوة كل كاتب على تفاوت فيه ، ولن يكون الرجل

« ... تختيم لوجريت في إنشائي كله مجرى أسلوب في تاريخ
 آداب العرب » ومقالاتي الأخرى ، ولوددت والله أن أرفه عن
 نفسي ، وأطرح عنى الكد فيما عجلته من أسلوب : حديث للقمم
 والمساكين ورسائل الأحزان والسحاب الأحمر ؛ ولكني أجدني
 كالسخر في ذلك لقوة تماورني في أوقاتها وتهب على كالمخ من
 سكون وركود ، فلم أفكر قط في كتاب من هذه الكتب ،
 ولكن تقع الحادثة ، فيجىء بها الكتاب ، ثم أرى من بعد صوته
 وتلقى التأديين به ما لم أكن أقدر بمضه وتنتهي إلى آراء مشيخة
 الأدب وطلابه ؛ فإذا لم لا يبدلون بهذا الأسلوب شيئاً في نسقه
 وألفاظه ومعانيه ، ثم لا يمييه إلا من قصر عنه وشق عليه النزوع
 فيه وكابر في الإقرار بمجزه ، فذهب يلتمس الماذير والمعايب ،
 وأخذ في ذلك مأخذ فرعون إذ جاءت امرأته فقيرة كانت هي
 وأطفالها يمشون على در (عنة) لهم ، فانت ، فأقبلت المسكينه
 بها على هذا الذي يدعى الألوهية ويقول أنا ربكم الأعلى وسألته
 أن يحياها ، فاعتذر بأن في السموات أعمالاً كثيرة أكبر من
 للمنة ...

أرى التأديين يعرفون لهذا الأسلوب ما يعرفه رجال التربية
 والتعلم من أساليب إنشاء للتصور وإرهاف الذهن وتدقيق الخيال
 وقوة للطبع اللغوي وصقله وإدارة الحس عليه . ثم هم يقولون
 إن موضعه من هذا الكلام الخث التهاك التي ترى به الأقلام
 المربضة في هذا العصر موضع الفعولة التي لا بد منها في الخليفة
 لإيجاد القوة التي لا تكون إلا بالفعولة وإشعار الهية التي
 لا تكون إلا بالقوة . فنحن في زمن كل كاتب فيه قادر على أن
 يرسل مداده ، بظن وحلاً لغويًا ، حتى كل من يعرف القراءة هو
 كاتب إن صحح أو أفسد ، وإن أصاب أو أخطأ ، وإن أخذ اللغة
 والكتابة عن معجياتها ودواوينها ومدارسها ، أو أخذها من
 الروايات والجرائد والأسواق

يقولون هذا ويضيفون إليه أن الفصاحة العربية كادت
 تنقطع أمثلها للميا ، وأنه لم يمد يكمل أحد في صناعة الكلام
 وأن زمننا هذا أحيان ينقلب إلى صرارة للتاريخ فينظر فيها ، سيري
 وجهه متورماً ندشاً مضمداً ملفوقاً بالجرائد ... وليس عليه
 سمة جمال ولا فيه من الأدب منظر قوة ، وأن اللغة أصبحت أشبه
 بالبيت التدامي الذي يريد أن ينقض لا تسمع من أهله ولا من